شهرُ ربيع الأول في حياة الرسول

من الموافقات العجيبة في حياة الرسول صلوات الله عليه أن شهر ربيع الأول كان شهره من بين الأشهر، وأن يوم الاثنين كان يومه من بين الأيام.

فيوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم استهلاله في مكة؛ ويوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم هجرته إلى المدينة؛ ويوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ولهذه الموافقات سر يعلمه من اصطفاه على خلقه واصطنعه لحقه، واختصه برسالته. ومن همسات هذا السر أن شهر ربيع الأول هو شهر اليمن والخصب والجمال في العام، وأن يوم الاثنين هو يوم القمر عند القدامى وللقمر شأن مذكور في الإسلام. فهو ميقات للناس والصوم والحج؛ وشعار للأمة والملة والدولة. وعلاقة الأقدار والحظوظ بالفصول والبروج والأيام لا تزال من الأسرار المغيبة في قطرة الإنسان. فلو أن شهر ربيع الأول جعل بدءًا للسنة الهجرية، وأن يوم الاثنين جعل يومًا للراحة الأسبوعية، لكان ذلك متفقًا مع تاريخ الهجرة، وجلالة الذكرى، ومكانة الرسول، وقداسة الشهر.

- 1 -

ففي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول للسنة الثالثة والخمسين قبل الهجرة كان الفضاء الرحب الصافي بين بيت إبراهيم بالمسجد الحرام، ودار السيدة آمنة بشعب بني هاشم بمكة، مسبْحًا الأجنحة الملائكة ومسبَّحا لأرواح الأنبياء، يحمدون الله ويشكرونه على أن تدارك الخليقة من جديد، باستهلال هذا العربي الوليد. وكان العالم قبل مولد محمد بن عبد الله يضطرب في الباطل ويتخبط في الضلال، ويتبسط في المنكر.

كبهيمـــة عميـــاء قـــاد زمامهـــا أعمى على عِوَج الطريق الأعوج

كان يسوق هذه البهيمة من الشرق الفرس على ما هم فيه من انحلال وفساد، ويقودها إلى الغرب الروم على ما هم عليه من إباحية وفسوق. وكان إيوان كسرى

وبلاط القيصر يتنازعان الولاية على الأرض بالكفران والطغيان والقهر. فلما قام بينهما في مكة مهد العربي اليتيم هزته يد الله فتصدع لهزته الإيوان، وتطامن لهيبته القصر، وهتف بالعاهلين العظيمين من جانب الغيب هاتف يقول: اليوم ينتهي تاريخ ويبتدئ تاريخ. ليس بعد اليوم ملك ولا كاهن ولا سيد إنما العبادة لله، والقيادة للرسول، والسيادة للدين، والحكومة للعرب، والدنيا للجميع! ثم درج يتيم الأبوين في دروب مكة وشعابها وأوديتها يتمرس بالحياة على أسلوب قريش، فرعى على بعض أهله، وسعى لبعض قومه، ثم أتجر بمال زوجه. وكانت عناية الله ترعاه في كل طور وفي كل مرحلة عاله وهو يتيم فقير وكفله وهو راع صغير، ووفقه وهو تاجر أجير. ثم شاء الله لأمر يريده أن يصنعه على عينه. فأدبه بأدبه، وعلمه من علمه، وعصمه من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل الربا، ولم يلعب الميسر. ولم يشهد اللهو، ولم يعْنُ وجهه لصنم، حتى صار اليتيم العديم سيدًا للجزيرة، والراعي الصغير راعيًا للعالم، والتاجر المتجول فاتحًا للأرض، والطاهر النزيه مهيأ لتلقي الوحي وتبليغ الرسالة.

وحينئذ انفتح باب من السماء على غار حراء تنزلت منه الملائكة والروح على أهل الأرض، وانبثقت فيه الشعاعة الأولى من وحي الله على قلب محمد. فهبط الصادق الأمين من فوق جبل النور يحمل المصباح بالهدى، ويحمل على الشرك بالتوحيد، ويحتمل في سبيل الدعوة إلى الله أذى أئمة الكفر من قريش.

- 2 -

وفي يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول للسنة الأولى من حادثة الفيل كان أذى قريش لرسول الله قد بلغ حد الائتمار به ليقتلوه. وكان صلوات الله عليه قد رأى قفار مكة المشركة قد نبتْ على غرس الدعوة فلم يخرج نباته لا نكدًا توشك السَّموم أن تأتي عليه، فهاجر به تحت عين الله إلى البلد الطيب الذي اختاره الله ليكون قاعدة لصرحه وحقلاً لغرسه ومجمعًا لقوته ومنارًا لهداه، وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والثبات والجهاد والخلق والرجولة، أثمر الغرس وتم النور واتحدت الكلمة واتسعت الرقعة، فصارت المدينة دنيا، والقلة ملة، والقرى الثلاث وهي مكة والطائف ويثرب قارات ثلاثًا

هي آسيا وأفريقيا وأوروبا. وأصبح الإسلام الذي بدأ بخديجة وعلي وأبي بكر وزيد دين الناس ودنيا العالم، يقف به في آخر المغرب عقبة بن نافع على شاطئ المحيط الأطلسي ويقول وقد خوض جواده في الماء: " اللهم رب محمد! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا في سبيل إعلاء كلمتك. اللهم أشهد! " ويتجه به إلى آخر المشرق قتيبة الباهلي ويأبى إلا أن يوغل في بلاد الصين فيقول له أحد أصحابه محذرًا: " لقد أوغلت في بلاد الترك يا قتيبة، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر " فيجيبه قتيبة: " بثقتي بنصر الله أوغلت. وإذا انقضت المدة، لم تنفع العدة ؟ " فرد عليه المشفق المحذر قائلاً: " اسلك سبيلك حيث شئت، فهذا عزم لا يفُله إلا الله ".

* * * * *

كانت الهجرة المباركة حدًا فاصلاً من نور الله بين الإسلام والجاهلية، وبين الوحدانية والوثنية، وبين القومية والعصبية، وبين الإنسانية والحيوانية، وبين ليل مظلم طال في الهول والويل والضلال، وصباح مسفر ضاء بالأمن والسلام والهداية.

تسنى بعدها للرسول بفضل الله أن يفطم المشركين عن الشر بالحكمة والقوة، وأن يربي المسلمين على الخير بالموعظة والقدوة. فجادل المنكرين بمنطق القرآن، وجاهد المكابرين بمنطق السيف، حتى جاء نصر الله والفتح ورأى الناس يدخلون في الله أفواجًا فسبح بحمد ربه، واطمأن على مصير دعوته وشعبه، وأخذ يسن السنن ويوضح المعالم ويبين للناس ما لو اتبعوه من بعده لما ضلوا ولا ذلوا. فلم تمض عشر سنين على الهجرة حتى كان الدين قد كمل، والنعمة قد تمت، والقرآن قد ختم، والعرب قد تهيأوا لولاية الأرض وحكم الدنيا. فحج صلوات الله عليه حجة التمام، وخطب في عرفة خطبة الوداع، أشهد فيها الله على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وخرج من العهدة.

وفي ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] فعلم أن الله قد نعى إليه نفسه واصطفاه لجواره.

- 3 -

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشر من الهجرة لحق بالرفيق الأعلى. وكان قد حم صلوات الله عليه منذ أسبوعين قضاهما في بُرَحاء الحمى بين وهجها وغشيتها لا يفتر عن ذكر الله ولا يغفل عن أمر دينه. وكان أشد عليه من وجعه أن ينقطع عن المسجد وأن يؤذنه بلال بالصلاة فلا ينهض لها. وفي آخر يوم من أيام المرض وجد الرسول خفة في جسده فعصب رأسه وخرج من بيت عائشة متثاقلاً تخط قدماه الأرض وهو معتمد على علي والفضل ابني عميه، حتى أتى المسجد والناس يقيمون الصلاة، فلم يكادوا يرونه مقبلاً حتى أخذتهم هزة الفرح وفرجوا صفوفهم له فخطا بينها حتى جلس إلى يسار أبي بكر وصلى قاعدًا وراءه. فلما قضيت الصلاة صعد المنبر، وكان قد علم أن مرضه الشديد قد جرأ بعض المنافقين على الانتقاض والردة، فوثب الأسود باليمن، ومسيلمة باليمامة، وطليحة في بني أسد، فقال بعد أن حمد الله واستغفر لأهل أحد: " أيها الناس؛ سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها! ألا وإنكم لا تملكون عليَّ شيئًا، إني والله لم أحل لكم إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم الله، وإن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، ثم أمسك. فأدرك الصديق أن الرسول يريد نفسه فأجهش بالبكاء وفداه بالأنفس والبنين. ثم خرج من المسجد فدعا لأسامة بن زيد بالخير وأمره أن يسير بجيشه إلى غزو الروم. وارتد إلى بيته فنكس النكسة التي انخزل عنها العلاج، وانطفأ منها السراج، وغام بعدها الأفق، ونجمت في أرض السقيفة بذور الفرقة. فلم يبق بين أيدي الناس إلا كتاب الله يهتدي عليه الضال، ويرجع إليه الشارد، ويستقيم به الطريق.

هذا هو شهر ربيع الأول، وهذه هي أثانيته الثلاثة، لخصت حوادثها تاريخ الرسول، وسجلت مواقيتها أطوار الرسالة. فكانت إطارًا للصورة القدسية التي صاغتها يد البارئ المصور لتكون جمالاً للتاريخ ومثالاً للإكبار. أو مشكاة للمصباح الإلهي السرمدي الذي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

من أجل ذلك وجب الاحتفال بذكرى هذا الشهر وهذا اليوم، ومن أجل ذلك استحب في أيام الاثنين الصدقة والصوم.